



#### الملخص:

تشكل العلاقة بين روسيا والنظام السوري امتدادا طبيعيا للعلاقة التاريخية بين الاتحاد السوفيتي والأنظمة الاشتراكية في المنطقة العربية، لكنها في الشأن السوري كانت أكثر خصوصية، حيث تعتبر سوريا آخر معاقل الاشتراكية في الوطن العربي.

ومن جهة أخرى فسوريا اليوم تحتضن قاعدة روسية بحرية صغيرة نسبيا في مدينة طرطوس الساحلية على المياه الدافئة، كما تعتبر القضية السورية آخر الأوراق المتاحة روسيا للعب بها على الضفة المقابلة للمعسكر الغربي في منطقة الشرق الأوسط وخصوصا بعد سقوط كل من نظامي صدام حسين في العراق ومعمر القذافي في ليبيا، تزامنا مع تناami شعور عودة الحرب الباردة وتعدد القطبية السياسية دوليا وأنه قد بات أمرا محتملا لدى روسيا، وخصوصا بعد أن ضمت الأخيرة شبه جزيرة القرم، اضافة إلى لعبها دورا رئيسيا في الأزمة السورية على مدة ثلاثة أعوام، وهي فرصة ربما لن تعوض لروسيا خلال عقد من الزمن، لذلك ستحاول روسيا أن تستغلها حتى الرمق الأخير خدمة لمصالحها الاستراتيجية العسكرية والسياسية والاقتصادية.

#### المقدمة:

تتعدد الثوابت في سياسة كل دولة تبعا لطبيعتها الجغرافية أو البنوية الاجتماعية بالإضافة إلى عوامل أخرى، كما تلعب التطورات الفكرية والاجتماعية والسياسية دورا هاما ومتراكما في تشكيل تلك الثوابت.

يقول الدكتور فداء كروب في دراسته بعنوان ما تعنيه سوريا لروسيا - الجزء الاول : "رسالة" باليستية توبول "صحيح إن "سلوك" الأمم، ويشمل هذا روسيا، يفاس ببراغماتيتها، وكذلك بمصالحها الجيو-سياسية، وإن المبادئ والصياغات الدائمة

لا مكان لها في لعبة الأمم؛ وليس أقل صحة أن هذه لعبة الأمم هذه، نفسها، تتحدد بثوابت ومتغيرات، تخضع بدورها إلى محددات جيو-سياسية واقتصادية واستراتيجية، وهذا ما يعني أن "موقف موسكو من الأزمة السورية يُقرأ، ليس من تفسير نبوءات قادة الأطلسي، ولكن انطلاقا، أولا، من ثوابت السياسة الخارجية الروسية، للوصول بعد ذلك إلى تفرعاتها".

لكن هذا لا يعني أن ليس لموسكو مصالح استراتيجية حاضرة في دمشق أكثر أهمية من كونها تاريخية، فلا يمكن أن نعزّز دعم روسيا اللامحدود تقريرا للنظام السوري من كونه امتداداً طبيعياً للعلاقة التاريخية بينهما وخصوصاً بعد انتقال سورية في عهد بشار الأسد من الاشتراكية إلى اقتصاد السوق الاجتماعي وهو أقرب ما يكون إلى سياسة السوق المفتوحة، فعوامل أخرى تلعب دوراً مرسخاً لها، مثل سعي روسيا لإعادة أحياء تعدد القطبية السياسية للمجتمع الدولي، ولو كان على حساب أحياء الحرب الباردة فهي خيار استراتيجي – كما يبدو – للروس، ومنها أيضاً حرص روسيا على أن لا تخسر آخر معقلها على المياه الدافئة في البحر الأبيض المتوسط عبر قاعدتها البحريّة في مدينة طرطوس الساحلية.

حاضر ومستقبل العلاقات الروسية مع النظام السوري وأثرها على الأزمة الراهنة

#### المجال السياسي:

كان الاتحاد السوفيتي السابق من أولى الدول التي اعترفت باستقلال سوريا وأقامت علاقات دبلوماسية معها في عام 1944. وتعززت العلاقات السورية الروسية بشكل كبير لترتقي إلى مستوى التحالف الاستراتيجي في وصول الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد إلى سدة الحكم في 1970 وإعلانه انطلاق ما عرف بالحركة التصحيحية التي كرست حكمه في استفتاء عام 1971.

بعد طرد السوفيات من مصر اضطر الكرملين للبحث عن بدائل أخرى في الشرق الأوسط، آنذاك كان كل من العراق وسوريا الذين يحكمهما حزب البعث العربي الاشتراكي أفضل تلك البدائل فتدفق السلاح إلى هذين البلدين، وبالإضافة إلى الدعم العسكري قدمت القيادة السوفياتية دعم سياسي مشهود لسوريا في المحافل الدولية وساهم الاتحاد السوفيتي في بناء البنية التحتية للاقتصاد السوري لاسيما في فروعه الاستراتيجية كالطاقة والتعدين والري واعتبر البلدان التعاون بينهما متجاوبياً مع مصالحهما المشتركة، إلا أن ثمة خلافات كانت قائمة بين الطرفين في بعض المجالات، هذه الخلافات كانت تتعلق بدرجة الدعم الذي يمكن أن يقدمه الاتحاد السوفيتي لسوريا، فالسوريون كانوا يطمحون إلى كما ونوع أكبر من الدعم السوفيatici.

كان الاتحاد السوفيتي يقدم لسوريا الدعم السياسي والعسكري في مواجهتها لإسرائيل تحدياً للدعم الكبير الذي كانت تتلقاه إسرائيل من الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الغربية.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي استمرت تلك العلاقة لكن بوتيرة أضعف من سابقتها، وجاءت الأزمة السورية كورقة تلعب بها روسيا وبصورة فاعلة مستفيدة من الدرس القاسي الذي تلقته من الغرب وخصوصاً في كل من العراق وليبيا، يقول كيله "حين اندلعت الثورة كانت روسيا قد خسرت ليبيا للتو، ولم تتحقق الوعود الأمريكية بالتعويض حينها (دخول روسيا منظمة التجارة العالمية).

لكن الأهم هو توصل روسيا إلى أن الوضع الأميركي قد أصبح صعباً بعد الفشل في تجاوز الأزمة الاقتصادية التي شهدتها سنة 2008، الأمر الذي جعلها تؤسس لسياسة جديدة تقوم على فرض "نظام عالمي جديد"، ينهي الأحادية الأميركيّة ويعوّس لثنائية جديدة أو لعالم متعدد الأقطاب، من هذا المنظور كانت المسألة السورية مدخلاً لتحقيق ذلك، حيث عملت على إظهار ذلك عبر مجلس الأمن للتأكيد بأنّ أميركا لم تعد هي المقررة في السياسات الدولية، وأنّ عليها أن تأخذ بعين الاعتبار الوضع الجديد الذي يفرض أن تكون روسيا شريكاً أساسياً في رسم هذه السياسات. وبالتالي أن يرتبط حل المشكلات الدولية،

وتقاسم العالم بالتوافق بينهما.

واستمر الدعم الروسي للنظام السوري ملحوظاً وخصوصاً لجهة استخدام موسكو لحق النقض الفيتو في أكثر من مناسبة في مجلس الأمن، ولم تسمح موسكو باستصدار أي قرار أو أي بيان يدين النظام السوري ولا بأي شكل من الأشكال، الأمر الذي عزز انتهاج النظام السوري لسياسة الأرض المحروقة وضرب المناوئين له وبكل الوسائل المتاحة حتى ولو كانت محرمة دولياً كاستخدام الكيماوي والأسلحة العنقودية.

وفي عام 2013 دعت موسكو بالتعاون والتفاهم مع واشنطن إلى مبادرة للحل السياسي بين النظام والمعارضة السياسية وال المسلحة، تتضمن مساع تفاوضية تنتهي بتشكيل هيئة حكم انتقالية، وهذا ما عبر عنه لاحقاً باتفاق جنيف 1، لكن سرعان ما نكثت روسيا بتفاهماتها السابقة حين جعلت من محاربة الإرهاب أولية في مفاوضات جنيف 2 في مطلع 2014، وهو ما أدى إلى تعنت موقف النظام ومن ثم اعلان فشل مؤتمر جنيف 2 على لسان المبعوث الدولي العربي الأخضر الإبراهيمي.

#### **المجال العسكري:**

قدمت روسية منذ أيام الاتحاد السوفيتي الدعم العسكري الكبير لسوريا وتوقف الدعم في التسعينيات في عهد الرئيسين غورباتشوف ويلتسين وعاد الدعم الروسي لسوريا في عهد الرئيس فلاديمير بوتين وكان بإعادة افتتاح القاعدة البحرية الروسية في ميناء طرطوس وعقد الصفقات العسكرية مع سوريا منها تقديم خبراء عسكريين وأسلحة وتجديد عتاد الجيش السوري من أسلحة حديثة.

في العام 1963 أقيم مركز الدعم المادي التقني للأساطول البحري السوفييتي في ميناء طرطوس السوري. وكان الاتحاد السوفييتي يورد إلى سوريا أسلحة وغيرها من السلع بكميات كبيرة مما أدى إلى تراكم المديونية الكبيرة (في عام 1992 كان دين سوريا لروسيا يتجاوز مبلغ 13 مليار دولار).

وفي عام 2005 وقعت بين البلدين اتفاقية شطب 73% من الديون السورية آخذاً بالحساب ان المبلغ المتبقى وقدره 2.11 مليار دولار سيتم صرفه لتنفيذ العقود الروسية. وتم إبرام هذه الاتفاقية في يونيو / حزيران عام 2008، وتمتد روسيا الاتحادية على 17 مليون كيلومتر مربع في آسيا وأوروبا وتعتبر سوريا نافذتها على البحر الأبيض المتوسط.

يقول الكاتب الفلسطيني سلامة كيلة: "في سنة 2010 حصل تقارب تمثل في إعادة تأهيل القاعدة البحرية الروسية في طرطوس (التي بنيت سنة 1981 وأغلقت سنة 1983 بناء على ضغط أمريكي)، ومن ثم أجزت صفقة صواريخ إس إس 300 التي كان البحث فيها قد بدأ من سنوات سابقة، وقد أجزت بعد أن دفعت إيران قيمتها" لكن ما زال الغموض يكتنف مصير تلك الصفقة".

وبعد تهديد الولايات المتحدة الأمريكية في عام 2013 بضربة عسكرية للنظام السوري أبان استخدام النظام السوري للسلاح الكيماوي تجاه الشعب السوري راح ضحيته أكثر من 1400 مواطن من الرجال والنساء والأطفال حركت روسيا عدة قطع عسكرية بحرية لتوجه إلى الشواطئ السورية في رسالة للغرب عن حجم الدعم المقدم من روسيا إلى النظام السوري، ولكن سرعان ما تبين أن كل من واشنطن وموسكو يمارسان الاستعراض العسكري قبالة الشواطئ السورية، وانتهى ذلك الاستعراض بقرار أمريكي يفرض على دمشق تسليم كامل سلاحها الكيماوي.

#### **المجال الاقتصادي:**

منذ منتصف السبعينيات وحتى بداية التسعينيات من القرن الماضي، بلغت عدد المشاريع الكبيرة المنفذة بمساعدة الاتحاد السوفييتي السابق أكثر من ستين مشروعًا، ساعدت على ضمان ركائز استراتيجية لسوريا في الحفاظ على أمنها الاقتصادي، ومن هذه المشاريع سد الفرات الذي حصلت سوريا بموجبه على قرض بمبلغ 120 مليون روبل عام 1966، وهو من أهم

كما شهدت الاتفاقيات اللاحقة مشاريع لبناء مصانع مختلفة كمصنع لإنتاج الأنابيب من الحديد والصلب، ومصنع لإنتاج قضبان وصفائح الألمنيوم، ومصانع للنسيج، والسكر، والكونسروة، والإطارات وغيرها. واستناداً لاتفاقية التعاون الاقتصادي الفنى الموقعة في 1972، تعهدت موسكو بتقديم قرض قدره 25/ مليون روبل، لتمويل مشاريع النفط وتسوية قيمة التجهيزات والمواد وقطع التبديل المشتراء من الاتحاد السوفياتي.

كما أدى التعاون إلى إنشاء خطوط حديدية يبلغ طولها أكثر من 1500 كم، وتجهيز القطر بشبكة من السكك الحديدية، ربطت بين مناطق الإنتاج الزراعي والموانئ في طرطوس واللاذقية، وقامت الحكومة السورية بشراء قاطرات дизيل وعربات الخاصة بنقل المسافرين، وعربات الشحن من موسكو. كما ساهمت مجموعة من الخبراء السوفيات في إقامة مركز لتدريب عمال السكك الحديدية بحيث توفر الخدمة الفنية والميكانيكية محلياً.

لقد استمر ازدياد وتنامي حجم التبادل التجاري بين البلدين بوتائر عالية، ووصلت قيمة الصادرات السورية إلى روسيا في عام 1989 و1990 أكثر من مليار و400 مليون جنيه إسترليني، وكانت السلع السورية من مواد نسيجية (الأقمشة القطنية والحريرية والممزوجة والغزلول القطنية والستائر والمناشف والألبسة الداخلية)، ومنتجات مواد التجميل والشامبو والكونسروة بأنواعها، وغيرها من المواد الأولية والمصنعة تغزو الأسواق الروسية وغيرها من دول الرابطة المستقلة، والشرقية.

ارتفعت صادرات روسيا الاتحادية إلى سوريا من 95 مليون دولار عام 2000 إلى 138 مليون دولار عام 2002. في حين ارتفعت صادرات سوريا إلى روسيا الاتحادية من 11 مليون دولار عام 2000 إلى 16 مليون دولار عام 2002. وفي عام 2005 تم توقيع اتفاق روسي - سوري للتعاون الصناعي والتكنولوجي، في الزيارة التي تمت عام 2005 للرئيس السوري بشار الأسد إلى موسكو تم الإبرام على اتفاقيات ضخمة ومشاريع كبيرة زادت على 100 مشروع تجاري واقتصادي وتم بموجب هذه الزيارة شطب 73 % أي 9.8 مليار دولار من صافي ديون سوريا لروسيا، البالغة 13.4 مليار دولار. وفي ظل الأزمة السورية وقعت كل من موسكو ودمشق عام 2013 اتفاقية التنقيب على الغاز في المياه الإقليمية في الساحل السوري، وهذا ما لاقى اعترافاً في أوساط المعارضة السورية، وتفهماً - غريباً - من فرنسا!!.

#### التبادل الثقافي:

تأسست "جمعية العلاقات الثقافية" مع الخارج لعموم الاتحاد السوفياتي التي تعد أصل هذا المركز في عام 1925، وقامت سوريا وما تزال بإرسال المئات من الطلاب السوريين للدراسة في روسيا في شتى المجالات وعززت الروابط الثقافية عن طريق سفارتي كل من البلدين وخصوصاً الفنصليات الروسية والمركز الثقافي الروسي في مدينة دمشق وجامعة الصداقة السورية الروسية.

وفي عام 2013 أصدرت وزارة التعليم العالي في الجمهورية العربية السورية قراراً يقضى بتدريس اللغة الروسية جنباً إلى جنب مع اللغتين الانكليزية والفرنسية.

#### الخاتمة:

لم تعد القضية السورية تشكل للروس قضية مبدئية وتاريخية، بل باتت مع أخواتها من القضايا كما في أوكرانيا والقرم مدخلاً لتحقيق أمجاد الامبراطورية الروسية في التوسيع والسيطرة وبسط النفوذ، واحتضان المجتمع الدولي لسياسة التعدية القطبية وعدم تفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالمشهد الدولي، وعلى هذا الأساس فلن يكون من السهل على روسيا التخلص عن القضية السورية والدفع بحلها عبر اجبار النظام السوري للقبول بتشكيل هيئة حكم انتقالية وفق جنيف 1، ومؤشرات السياسة الإقليمية والدولية الحالية تدل على أن حل الأزمة السورية قد تُرحل إلى منتصف عام 2017 على أقل تقدير إذا لم

يحصل تغيير جذري في مواقف واشنطن المُتمارضة.

#### الاستنتاجات:

وهما تقدم يتبيّن أن العلاقة بين النّظام السّوري والروسي باتت بحكم العلاقة الاستراتيجيّة وإن كانت مؤقتة وغير دائمة كون النّظام السّوري على طريق الإنهيار ولو بعد حين، غير أن مكابرة موسكو في تقبّلها لإعلان موت النّظام مرجعه شعور موسكو بنشوة – مؤقتة – الحرب الباردة وتعدد القطبية في السياسة الدوليّة، حرصها على لعب دور فاعل ومؤثر ورئيسي في كل الملفات الدوليّة وليس أولها القضية السّوريّة وليس آخرها الملفات الاقتصاديّة بين الدول.

ونظراً لموقف المجتمع الدولي المُتمارض تجاه عنجهيّة وصلف روسيا، وتمدد الأخيرة أفقياً في أوروبا الشرقيّة وخصوصاً في القرم وقريباً في مالدوفا، ونظراً لتطورات معركة اللاذقية زماناً ومكاناً، يبدو أنّ سورياً – لا قدر الله – ستشهد في العام 2014 احتلالاً – انتداباً – روسيّاً، قد يستمر إلى نهاية عام 2017، تحت مبررات عديدة أهمّها الخوف من عمليات تطهير طائفيّة تطال الطائفة العلوية في الساحل على يد "المتشدّدين" من المعارضة المسلّحة.

وأمام ضعف وتمارض السياسة الخارجيّة لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية باراك أوباما، وأمام تردد الاتحاد الأوروبي تجاه أكثر من ملفٍ إقليميٍّ ودوليٍّ وأهمّها الأزمة السّوريّة والأزمة الأوكرانيّة، هذا مما دعا بروسيا إلى استغلال الموقف إلى أقصى درجات الاستغلال، فتعمّدت إطالة الأزمة السّوريّة مما زاد في تشعبها وتعقيدها، إضافةً إلى ضمّ شبه جزيرة القرم في غضون أيام ابان احتجاجات شعبيّة في شهر آذار اطاحت برئيس الجمهوريّة الأوكراني.

روسيااليوم تحاول تقمص دور الاتحاد السوفياتي في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، والرئيس الروسي فلاديمير بوتين يعتقد انه أحد ابطاله روسيا التاريخيين، يسعى لتوسيع امبراطوريته وصولاً إلى أوروبا الشرقيّة وجنوباً وصولاً إلى حدود تركيا، وشعور بوتين بنشوة الانتصارات لن تحدّها إلا مواقف موحدة من الاتحاد الأوروبي وبقظة من سبات الضعف الذي تعاني منه واشنطن في عهد أوباما، ولذلك يرى مراقبون أن سياسة الصلف والعنجهيّة الروسيّة البوتينيّة ستستمر حتى أواخر ولاية أوباما، بانتظار رئيس جمهوري يضع حدّاً لكل الملفات الشائكة والمعقدة التي سيرثها من عهد سلفه الديموقراطي أوباما.

---

#### المراجع :

1. مراكز دراسات روسية
2. صحافة الشرق الأوسط
3. مركز الجزيرة للدراسات
4. وكالة سانا للأنباء
5. الموسوعة العالمية ويكيبيديا
6. مركز الشرق للدراسات الإقليمية والاستراتيجية

المصادر: